alsakher.com

الثائر الأحمر

ـ علي أحمد باكثير

جدول المحتويات

جدول المحتويات ٢
السفر الأول ٤
السفر الثاني ٥٣
السفر الثالث ٧٢
السفر الرابع ١١٥

الثائر الأحمر

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تـــدميرا) (قـــرآن كريم)

السفر الأول

١

في ضاحية من ضواحي قرية الدور، إحدى القرى المنتشرة حول الكوفة مما يلي البطائح، وعند الظهيرة من أحد أيام الصيف القائظة، طفق حمدان يمسح بأطراف أصابعه العرق المتصبب من جبينه، وهو يعمل في حقله، وإحدى رجليه على سنة المحراث والأخرى يرفعها عن الأرض حيناً، ويلمس بها الأرض حيناً، وقد أمسك بخطام الثور الذي يسير أمامه يجر خطوه جراً ثقيلاً، والسوط في يمنيه ينكت به مترفقاً على ظهر صاحبه الأعجم كلما توقف عن المسير أو تثاقل فيه، وكأن لسان حاله يقول: (أيها الثور الحبيب، كلانا محكوم عليه أن يعيش في هذا الشقاء، وهذا السوط في يميني، ويعز عليَّ أن يقع على ظهرك، فلا تحوجني إلى استعماله).

ويبلغ حمدان نهاية الشوط، فيدير الثور ويكر بالمحراث راجعاً، فيتنفس الصعداء إذ تقع عينه على تلك الأخاديد التي خطها بالمحراث على وجه الأرض صفوفاً مستقيمة مستوية، كأنها سطور خطها قلم كاتب صناع، وترتاح نفسه لرؤية الصنيع الذي قام به وجه يومه ذاك، وغداً يبذر فيها الحب، ويرسل إليها قنى الماء من فروع الرافد الغربي، فترتوي تلك الأرض العطشى، ثم لا تلبث إلا أياماً حتى يكسوها النبت، فتصبح جنة خضراء تسر الناظرين.

ولكنه ما لبث أن شعر بالأسى يعصر قلبه فترتعش له أوصاله حين يثب به خاطره إلى يوم الحصاد، فيتذكر أن ليس له من هذا العمل الدائب والجهد الناصب الذي يقوم به وأهل بيته طول يومهم في لفح الهجير وتحت الشمس المحرقة، وزلفاً من ليلهم متعرضين للبرد القارس في ذلك الجو القاري، إلا نصيب ضئيل لا يكاد يقوم بأودهم من جشب الطعام وخشن الملابس، ولا يضمنون به أن يمر عامهم ذاك دون أن يجوعوا يوماً لا يجدون فيه حتى ذلك العيش الكفاف، حين يلم بأحدهم ما يقعده عن العمل من مرض أو مشغلة.

على حين يذهب معظم ما ينتجه عملهم المتواصل إلى خزائن شاب قاعد عن العمل مشغول بملذاته وملاهيه في قصوره المتعددة وجواسقه المنتشرة في ضواحيها، لا يدري كيف ينفق ماله من كثرته، أو كيف ينفق وقته من فراغه، ولا يحول عليه حول حتى تضاف إلى أملاكه الواسعة أملاك جديدة يعمل فيها عشرات من أمثال حمدان وأهله ليسدوا جوعهم وليضاعفوا ثروته أضعافاً مضاعفة، ذلك هو سيدهم ابن الحطيم مالك الأرض التي يعمل فيها حمدان والأراضي الواسعة حولها التي تمتد من جهاتها الأربع أميالاً وأميالاً حتى لا يكاد العاملون فيها يعرف بعضهم بعضاً.

إن هذا الشاب الثري الذي قضت الأيام على حمدان أن يعمل في أرضه فصار بذلك سيده، والذي لم ير حمدان له وجهاً إلى يومه ذاك ولا يعرف عنه إلا اسمه المشهور في تلك الأنحاء وسيرته الخليعة التي يتحدث بها أهل تلك المنطقة، ويروونها فيما بينهم كما يروون أساطير الأقدمين –لهو إنسان مثل حمدان، قد خرج إلى هذه الدنيا من صلب آدمي مثل والده وترائب أنثى كأمه، لا يمتاز عنه بشيء إلا

أن أباه الحسن الحطيم قد ترك ضياعاً واسعة في تلك الجهة، فكفاه بها مشقة العمل، وملكه رقاب عباد الله المحتاجين إلى العمل فيها ليقيموا به أصلابهم.

كان الحسين الحطيم – فيما يروي حمدان عن أبيه- يملك خمس ضياع متفرقة في تلك الناحية يفصل بين بعضها وبعض ضياع صغيرة لغيره من صغار الملاك والمزارعين، كان جدهم يعمل في أرضه بنفسه ويستغلها لحسابه، فجعل الحطيم يستخدم ماله وجاهه عند السلطان في الإحاطة بأولئك الملاك الصغار والتضييق عليهم بمختلف الوسائل وشتى الطرق، فحيناً يدفع الأشقياء إلى إتلاف القنى التي تسقي تلك المزارع وحيناً يغري اللصوص ليسطوا على ثمارها ليلاً أو يفسدوا زرعها أو يشعلوا النار في سنابلها قبيل الحصاد، وحيناً يرشو عامل القرية ليوعز إلى جباته الغلاظ أن يفرضوا على أولئك المساكين خراجاً أكبر رمما تحتمله أرضهم، ويشتطوا في مطالبتهم بذلك حتى يرهقوا كواهلهم ويضطروهم إلى الاستدانة، إما من يهودي القرية بالربا، أو من أحد تجارها على أن يستولي التاجر على غلات أرضهم أو ثمارها بالأسعار التي يقترحونها، فما لبث الملاك أن رهنوا أملاكهم، ثم ما لبثت الرهون أن غلقت، فيتقدم سماسرة الحطيم لشرائها واحداً بعد واحد بأثمان مبخوسة، فما هي إلا أعوام معدودة حتى اتصلت ضياع الحطيم بعضها ببعض، وصارت تلك الناحية كلها ملكاً خالصاً له، وما ينس حمدان من الأشياء فلن ينسى أن والده كان أحد أولئك الملاك الصغار الذين سقطت أملاكهم في يد ذلك المالك الكبير، ولو بقيت لوالده ضيعته الصغيرة لورثها عنه، فاستطاع أن يعيش فيها عيشة طيبة هو وأهله وعياله، ويتمتعوا بثمرات عملهم وكدهم.

ولم يثبت للحطيم في ميدان الصراع على امتلاك أراضي تلك المنطقة وانتزاعها من أيدي أهلها الصغار إلا مالك كبير آخر هو أبو الهيصم ابن أبي السباع من وجهاء تلك القرية، له مثل مال الحطيم وجاهه ونفوذه مطامعه، وقد سلك مثل السبل التي سلكها منافسه، وتم له من الاستيلاء على أملاك جيرانه الضعفاء قريب مما تم للحطيم، وهكذا أصبح هذان المالكان سيدي القرية، يتنازعان النفوذ فيها لدى ذوي السلطان من عامل القرية إلى والي الكوفة إلى الوزراء ورجال البلاط في عاصمة الخلافة.

وقد أدى التنافس المستعر بين هذين المالكين، ثم بين وارثيهما بعدهما، إلى انقسام أهل القرية وما حولها إلى حزبين كبيرين يتعصب أحدهما لآل الهيصم والآخر لآل الحطيم، وقلما يمضي يوم دون أن يتشاجر اثنان من أتباعهما أو يتسابان في سوق القرية أو في جامعها أو في أحد أزقتها. وقد يعظم هذا الشجار فيشمل أهل القرية جميعها، ولا سيما في الأعياد والمواسم أو الولائم الكبيرة التي يولمها أحد البيتين فتصبح القرية ميدان قتال بين الفريقين بالعصي والحجارة والخناجر والسيوف، تسيل فيه الدماء، وتنهب الحوانيت وتتعطل مصالح الناس يوماً أو يومين حتى يتمكن عامل القرية وشرطته من الحيلولة بين الفريقين ووضع الأمور في نصابها. ولا يقتصر هذا التحزب والخصام على سكان القرية، بل يتعداهم إلى الفلاحين والأكارين الذين يعملون في أرض المالكين الكبيرين، فكثيراً ما يقع العراك بينهم فيسقط منهم صرعى كثيرون في سبيل الشيطان إرضاء لنزوات هذين السيدين اللذين يتحكمان في رقابهم بامتلاكهما الأرض التي فيها يعملون.

وتلي هذه المشاجرات مقاضيات ومحاكمات وأحكام تصدر بالسجن على بعض والغرامة على بعض والجلد على آخرين، ولكن السيدين الكبيرين اللذين كانا مصدر البلية كلها يبقيان بمعزل لا تمتد إليهما يد القضاء، وقد يقضي أحدهما ليلته المشئومة بأحد أبهاء قصره في قصف وشراب مع خلصان ندمائه وفهيم عامل القرية، لا ينهنههم عما هم فيه من اللهو والمرح ما يحمله الظلام إليهم من عويل النوادب في القرية وهي تنوح على موتاها.

وقد اكتوى حمدان بهذه النار فيمن اكتوى، فإنه ليذكر ما أصابه وأصاب ابن عمه عبدان ذات ليلة وهما يزوران صديقاً لهما من الفلاحين الذين يعملون في أرض الهيصم، فبينما يسمران عنده إذا بنبأ سرى في الضيعة بأن قتالاً يدور في القرية حينذاك بين أتباع سيدهم وأتباع ابن الحطيم، وإذا عصبة من الفلاحين يقتحمون كوخ المضيف بعصيهم وفؤوسهم يريدون أن يضربوا حمدان وعبدان على الرغم من توسلات المضيف إليهم أن يكفوا عنهما لأنهما في ضيافته، ولا يجوز الاعتداء على الضيف، فاضطر حمدان وعبدان أن يقاتلاهم دفاعاً عن أنفسهما حتى تمكنا من الهرب، واتفق أن أصاب حمدان أحدهم بضربة في فمه سقطت لها أسنانه فكان أن حكم عليه بدفع غرامة ثقيلة ظل يشكو عقابيلها عاماً كاملاً.

كان حمدان في نحو الخامسة والثلاثين من عمره قوي البنية جلداً على العمل، بشوشاً لا تكاد الابتسامة تفارق شفتيه حتى في أحلك الساعات وأهول الخطوب، ولكنه يحمل وراء هذا الخلق الرضي، وهذا الثغر البسام، قلباً يضطرم بالثورة على تلك الأوضاع التي يراها جائرة لا يجوز لبني جلدته أن يتحملوها صابرين، ولا يعتبرها إلا فترة من فترات الظلم والاضطراب لا يمكن أن تستقيم عليها حياة الناس، فلا ينبغي أن تستمر طويلاً.. كان يعتقد أن ما بناه المال والنفوذ لا يمكن أن يهدمه إلا المال والنفوذ، فأنى له هذان وهو لا يكاد يملك عيشة الكفاف لنفسه ولعياله إلا بمشقة وجهد، وبعد أن يقدم لسيده ابن الحطيم أضعاف أضعاف ذلك من كد عامهم.

إنه ليسائل نفسه أحياناً: أحر هو أم رقيق؟

نعم إن ابن الحطيم لم يشتره من النخاسين ولم يدفع ثمناً له فهو لذلك حر في عرف الناس، ولكن ابن الحطيم يملك ناصيته ويتحكم في رزقه، فجعله بذلك كأنه من رقيقه، بل عسى أن يكون الرقيق أحسن حالاً منه وأطيب بالاً إذ يشعر أن مولاه لا بد أن يعنى بشأنه لئلا يخسر قيمته حين يصيبه مكروه، وليس الأجير الحر كذلك، فما أكثر ما تخدع الأسماء.

كانت تدور هذه الخواطر وأمثالها في رأس حمدان، وهو يشق الأرض بمحراثه في ذلك اليوم الشديد الحر، فلا يعوقه ذلك شيئاً عن الاجتهاد في عمله وبلوغ الغاية فيه، وفي جانب آخر من الحقل غير بعيد منه، كانت شقيقتاه عالية وراجية تعملان في تكسير الركام وتسوية التربة التي كان أخوهما قد حرثها من قبل، وكان الحديث يدور بينهما بصوت خافض ويتناول ما يطيب لهما الخوض فيه من شئون جارتهما من نساء الفلاحين وفتياتهم، فهذه الجارية فلانة قد خطبها فلان ولكنه عجز أخيراً عن دفع ما بقي عليه من مهرها فانتهى أمره بفسخ الخطبة، وأخذ يطالب أباها بالجزء الذي دفعه من المهر

فلم يعطه شيئاً، مدعياً أنه قد أنفقه في تجهيزها، فرفع أمرهما إلى قضاء القرية، وهذه فلانة امرأة فلان قد وضعت ثلاثة توائم، وإنهما لتعجبان من ذلك الرجل القمئ الضعيف المتضائل كيف استطاع أن يولدهما ثلاثة في بطن، وتلك فلانة ابنة صديقة أمهما، وقد طلقها زوجها لأنها لم تحبل بعد أن عاشت معه سبع سنوات، ثم تبين له بعد تطليقها أنها حملت منه، فليت شعري هل يراجعها بعد ما تزوج امرأة أخرى.

كانت الفتاتان تتحدثان وهما منهمكتان في عملهما، ولا تنقطع إحداهما عنه إلا ريثما تسوي ما اختل من نظام شعرها بين الفينة والفينة، أو تصلح العصابة التي تمسكه أن يتهدل على وجهها، أو ريثما تدير –اتقاء للشمس- المظلة التي تلبسها على رأسها من خوص النخل، أو ترفع جيب قميصها عن صدرها الناهد وقد لصق به لصوقاً شديداً من العرق فيبرز نهداها بروزاً صارخا يشعرها بالخجل إذ يخيل إليها –إن حقاً وأن وهماً- أن قميصها على سواده قد يشف عن سواد حلمتيها.

قالت عالية: لأختها، وقد نظرت إليها فرأت على ثغرها ظل ابتسامة عابثة: (ما خطبك يا راجية؟ ما سنح ببالك؟).

- أتعرفين ثمامة ذلك الفتى الداعر؟

- نعم أعرفه ولا أظنه كما تصفين، فما باله؟

- إنه يستحق قطع رأسه.

- ماذا فعل؟

- تعقبني اللعين في ذهابي إلى القرية أمس.

- نعم.

- وعند رجوعي منها أيضاً.

- نعم.

- وغازلني ودعاني يا حمراء العينين، أرأيت إلى جرأته ووقاحته، لقد هممت أن أشدخ رأسه بالفأس التي كانت معي.

- هل ساءك أن وصفك بحلية استلطفها فيك؟ إنك وحمدان قد نزعتما في لون العينين إلى الوالد رحمه الله، بيد أني أخذت عن أمي لون عينيها.

- ولكن عيني لا تبلغان مبلغ عيني حمدان من الاحمرار.

- أجل ولكنهما بعد لحمراوان، لوددت لو أنهما كانتا لي فإني أراهما أجمل وأملح، وماذا قال لك ثمامة بعد؟

- ماذا عسى أن يقول مثل هذا الفتى الخبيث لفتاة مثلي إذا أراد أن يختلها؟ قال لي إنه يهواني وإنه يتمنى لو أقبله بعلا لي.

- فماذا قلت له؟

- أردت أن أصرفه عني فزعمت له أنني مخطوبة لعبدان ابن عمي.

- فماذا قال؟

- ما صدقني بل ضحك ضحكة فاجرة وقال: (تلك أختك عالية فلا تدعي ما ليس لك).

فأسبلت عالية جفنيها فظهر واضحاً جمال أهدابها السود وهي تكاد تلامس وجنيتها من طولها، وانكفأت تقول: (ألم يقل عني شيئاً غير هذا يا راجية؟).

فترددت راجية قليلاً ثم قالت: (لا، لم يقل شيئاً آخر).

فرفعت عالية جفنيها فطفقت عيناها تلمعان كأنهما نجمان وجعلت تنظر في عيني أختها كأنها تشك في صدق ما تقول ثم قالت:

بحياة أمي يا راجية وحياة حمدان!

فرجعت راجية تقول: (الحق أقول لك يا أختي إنه أراد أن يغيظني لما أغلظت له الرد وقطعت عليه السبيل فقال لي: لولا أني أعلم أن أختك قد خطبها ابن عمها فهل تظنين أني أوثرك عليها وهي أجمل فتاة قبل شفتيها ماء الفرات؟).

قالت عالية وقد ازدادت عيناها صفاء ولمعاناً: (أوقد قال ذلك؟ إني لأخال صاحبك هذا شاعراً يا راجية!).

قالت راجية وقد سرى في جبينها طائف من العبوس: (أو يروقك الشعراء بعد يا عالية؟ أليس بحسبك عبدان ابن عمي؟ إنه والله لخير منه ألف مرة. أما والله لو كنت مكانك لقصرت همي عليه، ولما عناني أن يطريني سواه ولو كان أشعر الشعراء).

قالت عالية وهي تبتسم: (لو لم تكوني أختي لغرت منك على عبدان، ولخلت أن تحمسك له لم يصدر من قلب سليم قط).

فأجابت أختها وهي تصطنع الابتسام: (إنما نافحت عن ابن عمي لما آنست أنك تعدلين به غيره، وما قلت إلا ما ينبغي لي أن أقول عنه).

فنظرت إليها عالية نظرة تفيض بكثير من الحب وقليل من العتب وقالت: (والله إني لأحب عبدان ولا أعدل به أحداً غيره. ولكنك يا أختي ما زلت حديثة السن ويغيب عنك كثير من شئون الحب!).

وما قطع حوار الأختين إلا صوت أمهما العجوز تناديهما من خلفهما على بعد منهما، فألقت راجية مضربها وانطلقت لترى أمها ماذا تريد. وكانت العجوز جالسة على مصطبة كبيرة أمام كوخها، تظللها أيكة من النخل تجري حولها أنابيب من الماء، ثم تنطلق إلى حيث تسقي صفوف النخل المتفرقة في أطراف المزرعة، وكان أمامها كومة من التبن وحزم من قصب الذرة الجاف وشيء من البرسيم الأخضر، فهي تقصف من القصب عيداناً قصيرة وتضع بينها شيئاً من التبن، ثم تلف عليها حزاماً من البرسيم، تعد ذلك لغذاء الثور وغيره من الماشية التي عندهم.

- ماذا تريدين يا أماه؟

- انطلقي إلى أخيك حمدان فقولي له قد آن أوان الغداء. وارجعي أنت وأختك فساعدا أم الغيث في إعداد الطعام.

- وماذا تفعل أم الغيث من الصبح؟
- شغلها ولدها يا بنيتي عن كل شيء، فعليكما أن تساعداها ولا تغضبا أخاكما في امرأته.
- قوم ينامون في الكوخ وقوم يعملون في حر الشمس!
- إن شئت عنيت أنت بولديها وهي تعمل مكانك.
- أما الغيث فخطبه سهل، ولكن أنى لي اللبن أرضعه لفاخته؟

فرفعت آلام حاجبيها المتهدلين من الكبر ونظرت إلى ابنتها بعينين واسعتين لعلهما كل ما بقي لهـــا على حاله من عهد الشباب بعد ما تغير كل شيء فيها وقالت في صرامة: (إذا فاهتمي بشـــأنك ودعـــي شئون الآخرين).

وانصرفت راجية لتدعو أخاها وأختها وهي تقول بلهجة لا تخلو من التبرم: (سمعا لك يـــا أمـــاه، سأظل أعمل في حر الشمس حتى تصبح عيناي بلون الدم).

فابتسمت العجوز ابتسامة خفيفة وهي تشيع راجية بعينيها وطفقت تقول: (ومن يشابه أباه فما ظلـــم، رحم الله أباك! ما لقبه الناس بقرمط إلا لحمرة عينيه).

٢

أما عبدان فكان شاباً في الثالثة والعشرين، نحيف الجسم دقيق الأطراف، قضى أيام طفولته الأولى في (قرية الدور) حيث كان أبوه تاجراً ذا حانوت صغير في القرية، يبيع فيه أنواع الأقمشة الرخيصة للفلاحين الذين يأتون إليها من ضواحيها وأريافها. ماتت أمه وهو صغير لم يعد التاسعة فتزوج أبوه امرأة أخرى ذات ولد من غيره، فلم تطب حياة الصبي في المنزل لأن زوجة أبيه كانت قليلة العناية به لا تهتم إلا براحة أولادها، فكانت تعامله معاملة الخادم، وتكلفه القيام بأعمال مرهقة، وتضربه كلما قصر في أدائها ضرباً مبرحاً، قضى عبدان أربعة أعوام في هذا العذاب. وما أنقذه من ذلك إلا وفاة والده فأخذه ابن عمه حمدان ليكفله عنده بمقتضى وصية أبيه.

لم يستطب عبدان حياة الريف في أول الأمر لاختلافها عن حياة البلد التي نشأ عليها من قبل، ولكنه ما لبث إلا قليلاً حتى أخذ يألفها شيئاً فشيئاً إلى أن أحبها آخر الأمر، وصار يقوم بمساعدة ابن عمه في أعمال الفلاحة والزراعة، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى ما وجده عند حمدان ووالدته من البر به والعطف عليه بعد ذاك الهوان الطويل الذي لقيه من زوجة أبيه.

وقد أنس بالطفلتين الجميلتين عالية وراجية. فكان يلعب معهما في الحقل وعلى ضفاف القنى، ويساعدهما في جمع الثمار وفي تحويل مساقي الماء من حقل إلى حقل أو من شجرة إلى أخرى.

كان عبدان يكبر عالية بثلاث سنوات وتصغره راجية بسبع، وكان يحمل لهما حب الأخ لأختيه، وكذلك كان شعورهما نحوه، غير أن هذه العاطفة تطورت على الأيام فأصبحت حباً قوياً بينه وبين الأخت الكبرى أيده حمدان بأن عقد خطبته عليها، فلما بلغ عبدان رشده خيره حمدان بين البقاء عنده، والرجوع إلى القرية ليفتح له دكاناً فيها برأس المال الذي ورثه عن أبيه، فاختار عبدان الثانية، وقد صادف اختياره هوى في نفس حمدان، فإذا رأى أن حياة الفلاحين على ذلك الوضع الجائر جحيم لا تطاق، فهو يتمنى لابن عمه حياة أهنأ وأرغد، تنعم بها أخته معه، ومن يدري لعل عبدان إذا نجح في تجارته أن يمد إليه يد العون فينقذه من الوهدة التي يتردى فيها هو أسرته.

وصح ما توقعه حمدان، فقد أفلح عبدان في تجارته.. وما مضى عامان منذ اشتغل بها حتى تضاعف رأس ماله وكثر عملاؤه من الفلاحين وغيرهم،لما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة وحسن المعاملة والإخلاص في النصح، ولما كان يقوم به حمدان من الترويج له في أوساط جيرانه الأكارين.

وكان عبدان كثيراً ما يتعهده بالزيارة، فيقضي ليلته ضيفاً عليه ويأتي معه بهدايا من الملابس والطيب والأحذية يتحف بها خطيبته وسائر أفراد الأسرة، فيتقبلونها منه بالشكر والامتنان، وكان في خلال ذلك يلح على حمدان بالتعجيل بزفاف عالية إليه، غير أن حمدان كان يستأذنه في ذلك خشية أن يرزأه في رأس ماله بنفقات العرس قبل أن يشتد ساعده ويقف على قدميه، وما كان أشد فرح عبدان إذ رضي ابن عمه أخيراً أن يتسلم منه صداق أخته ويعين له موعد الزفاف، فأخذوا من ذلك اليوم يعدون

جهاز العروس، ويهيئون لليلة الزفاف السعيدة، وإنهم لفي ذلك إذ جاء ثمامة ذات ليلة إلى كوخ حمدان والتمس مقابلته، فلما اختليا صرح لحمدان بأنه جاء ليخطب منه أخته راجية، فاعتذر حمدان إليه بأن أخته ما تزال صغيرة السن، وأنه لا يستغني عن معاونتها له في أعمال الحقل.

ولكن ثمامة ألح عليه في الطلب، وعرض عليه استعداده للانتظار عاماً أو عامين حتى تبلغ السن التي يشاء حمدان فيها أن يزفها إليه. فلم يسع حمدان إلا أن يعده خيراً، وهو ينوي أن يصرفه عن ذلك بطريقة من الطرق، فقال له: (إني سأؤامر الفتاة وأستشير أهل بيتي في أمرك، فإذا قبلوا فسأبعث إليك من يخبرك). ورضي ثمامة منه ذلك فودعه وانصرف.

وكاشف حمدان أهل بيته بما تقدم به ثمامة من الخطبة فقالت أمه العجوز: (إن يكن لها نصيب فيه فهيا يا حمدان لنزفهما معاً في ليلة واحدة).

قال حمدان: (إنني لا أعرف عنه شيئاً يا أماه، فلا بد أن أستقرئ عنه أولاً، ثم لا بد قبل ذلك من رضى راجية). فتوردت وجنتا الفتاة، وخفضت رأسها حياء، وجعلت تبتغي وجهاً تلجأ إليه وتتقي به العيون، فلما رفعت رأسها استقرت عيناها على وجه أختها عالية فوجدت على ثغرها ابتسامة ذات معنى كأنها تقول لها: (ويلك يا ماكرة! أليس هذا الذي غضبت منه إذ دعاك حمراء العينين؟ فماذا يمنعك الآن من رفض طلبه؟).

قال حمدان: (أتعرفين هذا الشاب يا راجية؟).

فجمعت راجية شعاع نفسها وقالت له: (لا يا أخي لست أعرفه ولكني كثيراً ما رأيته).

- أين كنت ترينه؟

- كان يجمعني به الطريق إلى القرية أو منها.

سكت حمدان قليلاً وهو ينظر إليها ثم قال: (ما رأيك فيه هل تقبلينه زوجاً لك؟).

فسرى عن الفتاة كأنما نجت من قارعة كانت توشك أن تنزل بها، وقالت:

(إن رضيت به لي يا أخي رضيت به لنفسي).

فظهر السرور على وجه حمدان وقال لها: بارك الله فيك يا أختي، سأستقرئ عنه فإن وجدته صالحاً قبلت طلبه.

أخذ حمدان يتحرى عن ثمامة، فما طال به التحري، إذ سرعان ما علم عنه أن أباه كان مزارعاً ميسور الحالة، حتى شب ابنه هذا فاتصل به رفقاء السوء فجروه إلى حياة اللهو والخلاعة فكان يسطو على مال أبيه ليبدده في حانات الكوفة ومواخيرها، فإذا فرغ ما عنده رجع إليه ليسلبه مقداراً آخر حتى انتهى الحال بأبيه إلى الإفلاس وبيعت أرضه للهيصم أما هو فقد صار يعيش منذ ذلك الوقت عيشة الشطار والعيارين.

عجب حمدان لما هداه إليه بحثه، واستغرب أن يكون مثل هذا الشاب الوسيم الطلعة الجميل البزة عياراً، وحمد الله على أن منظره لم يخدعه عن مخبره، ولم يشأ أن يسترسل في استقراء أحواله بعد ليعلم عنه أكثر مما علم، فما كان فضولياً وليس في وقته متسع للاهتمام بما لا يعنيه، فبعث إليه رسولاً

يخبره برفض طلبه، فرجع الرسول يحمل إليه التهديد من ثمامة والوعيد، فلم يعبأ به حمدان كثيراً لثقته بقدرته على الدفاع عن نفسه، ولعلمه أن جماعة الشطار لا يجدون عنده ما يطمعون فيهز بيد أنه كان أحياناً يجد في نفسه شيئاً من هذا الأمر فيغم قلبه وينقبض صدره.

وكان عظيماً على راجية أن تصدم في حبها الأول، فمهما سرها أن نجت من الوقوع في فخ هذا الصائد الماكر، فقد عز عليها ألا تهديها بصيرتها إلى الحقيقة في أمره أول ما وقعت عيناها عليه، وكانت تعتقد أنها صادقة الحدس جيدة التمييز فقد تبين لها الآن أنها لا تكاد تدرك في هذا الشأن شيئاً.. أترى ذلك لحداثة سنها بعد؟ فما بالها إذن لا تقل عن أختها عالية نضجاً واستواء، ولا تنقص عنها بروز نهد أو رباوة كفل أو امتلاء ساق؟

وكانت تحرص أشد الحرص على كتمان شعورها هذا عن كل أحد من أهلها، وتبدي قلة الاكتراث لما انكشف من حقيقة هذا الخاطب العيار، بل إنها لتتعمد أن تقع فيه بكل ما يسعفها به لسانها السليط من كلمات القدح والتحقير، لتنفي بذلك الظنة عنها ولتوهم نفسها أنها لم تنخدع به قط وإنها إنما أذنت لأخيها في قبوله إذ شاء اتكالاً على أن تحري أخيها عنه سيكشف له من أمره ما يدفعه إلى رفض طلبه.

بيد أنها لم تستطع أن تكتم حقيقة شعورها عن أختها عالية، فهذه تعلم من سرها ما يجهله الآخرون، وتعرف أن راجية قد شغفت بهذا الشاب وإنها ما تزال تحبه على رغم ما انكشف لها من أمره. وأن عالية لتتجاهل هذا السر وتتجنب الإشارة إليه من قريب أو من بعيد، ولكن ذلك لا يزيد راجية إلا إحساساً بالهزيمة والضعة أمامها، فأخذت تتجنى عليها وتتعمد الإساءة إليها بأساليب مختلفة، فلا تقابلها عالية إلا بنظرتها الساجية وابتسامتها الصامتة التي تحمل في أطوائها مزيجاً من الشفقة والسخرية وقلة الاكتراث، فيكون في ذلك أشد ما يؤلم راجية ويملأ صدرها غيظاً. وكثيراً ما حاولت راجية أن تخرجها من هذا الصمت المطبق، فتحوم بها حول هذا الموضوع لتخوض فيه، عسى أن يزل لسانها بكلمة نابية في حقها، فتصب عليها شواظاً من غيظها المكبوت تريح به صدرها، وتجد به فرصة للدفاع عن نفسها ولرد اعتبارها أمام هذه المخلوقة الوحيدة التي تعرف خبيئتها. ولكن عالية لا تمكنها مما تريد إذ تعدل بالحديث في لباقة ويسر إلى غير ما قصدت راجية أن توجهه إليه. فلا تجد راجية أمامها بعد الجهد والمحاولة إلا تلك النظرة الساجية والابتسامة الصامتة.

ولم تعف راجية في سبيل إيذاء أختها حتى عن التعرض لعبدان بالملاطفة والتحبب كلما حضر لزيارة أهلها، وتتخذ في ذلك أساليب تختلف باختلاف من يحضرهما عند ذاك، فطوراً تبالغ في الترحيب به حين يكون أخوها حاضراً أو امرأة أخيها، وطوراً تعانقه معانقة الأخت لأخيها حين لا يشهدهما إلا أمها وأختها، وطوراً تكسر له الطرف وتخضع له بالقول حين لا يكون بينهما إلا عالية، تريد بهذا كله إحراج صدرها وإخراجها من هدوئها الغائظ لها، فإذا اعترضت عليها عالية في شيء من ذلك ولو بكلمة لينة هبت في وجهها واندفعت تلومها على ما جبلت عليه من سوء الظن وتتهمها بالغيرة العمياء على خطيبها حتى من أختها التي لا تنظر إليه إلا كما تنظر إلى أخيها من أمها وأبيها،

ولما أدركت عالية ما ترمي إليه أختها الموتورة صارت لا تعبأ بعد ذلك بهذه الهنات التي تأتيها أختها نحو عبدان، ولا تقابلها إلا بتلك النظرة الساجية والابتسامة الصامتة.

وقد كانت راجية تنفس عبدان على أختها من قبل، وتتمنى لو كان من نصيبها هي، إلا أنها كانت تكتم ذلك في أعماق ضميرها، ولا تجرؤ الاعتراف به حتى أمام نفسها، فكانت دائماً تتحامى جانب عبدان إذا حضر عندهم، إلى أن كان حادث ثمامة، فانقلب سلوكها نحوه هذا الانقلاب المبين.

غداً تزف عالية إلى عبدان وتبقى هي وحدها أمداً طويلاً في منزل الأهل تعاني من ألم الحسرة على عبدان ما تعاني فما ضر الدهر لو لم يجعل ثمامة عياراً فلم يرفض طلبه؟ إذاً لكان لها في زفافها إلى هذا الشاب الذي يفرع عبدان طولاً ويفوقه وسامة وأناقة، ما يعوضها عن ابن عمها الذي قضى سوء حظها أن يكون من نصيب أختها دونها.

بل ما ضر الدهر لو أخفى حقيقة ثمامة عن أخيها حتى تم زفافها إليه؟! أواه.. لقد كان ذلك في الإمكان فلم يكن! يا ليته كان! إذاً لأراحها ذلك من هذا العذاب الذي هي فيه، ولا بأس بعد ذلك أن تكون زوجة عيار جميل، إن العيارين بعد لمعروفون بالشهامة والنجدة وشدة البأس والمروءة، وأنهم ليعتدون على القوي، وينصرون الضعيف، يسطون على مال الغني ويعفون عن مال الفقير، وأنهم ليجيرون النساء ويغارون على الحرمات، ولئن كان بينهم من يشذ عن هذه الخلائق الكريمة، فالشواذ في كل قوم وكل قبيل.

ويستبد بها الخيال فيتصوّر لها أنها قد أصبحت حقاً زوجة ثمامة، تحيا معه حياة ملأى بالمغامرات والمخاطرات المثيرة وتنتقل معه من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد، ويأتيها كل يوم بنصيبه من الأسلاب والغنائم فيرميه تحت قدميها لتتصرف فيه ليومها بدون حساب وبدون اهتمام لما يتمخض عنه الغد فالغد عند هؤلاء مضمون ما دام في الدنيا غني يفيض ماله عن حاجته وفقير لا يجد ما يسد به جوعته.

وإذا قعد بزوجها سبب من عجز أو مرض أو خانه يوماً حظ عاثر فلم يأت بكسب جديد فإن له من عصابته المتكافلين في السراء والضراء من يسعفونه ببعض ما لديهم، ويبيحونه من ذلك ما شاء.

وها هو ذا ثمامة قد أقبل ليودعها متأهباً للخروج إلى سرية كبيرة في ليلة من ليالي الشتاء شديدة القر حالكة السواد، وقد لاث عمامته على طريقة خاصة بجماعته، وتقلد سلاحه وأرخى على وجهه اللثام الأسود فلا يرى إلا عيناه البراقتان، فأخذها بين ذراعيه القويتين فضمها ضمة شديدة رسمت ببالها في مثل لمح البرق صورة منه وهو يصارع من يقاومه من فرائسه ويأبى لسوء حظه الخضوع والاستسلام، ثم حسر القناع عن شفتيه الغليظتين فأهوى بهما على ثغرها حيث استقرتا لحظة ثم زحف بهما رويداً رويداً حتى أغمض بهما إحدى عينيها وهو يقول بصوت المغرم الولهان: "يا حمراء العينين أحبك.. أحبك!..".

وها هي ذي قد طال بها انتظار أوبته من السرية فهي تتقلب على فراشها من قلق عليه، ويخيل إليها أنها تسمع خفقاً لدى الباب الخلفي في الزقاق المهجور، فتنهض من فراشها وتقف أمام باب

حجرتها حابسة أنفاسها تتسمع وتتنصت فإذا الوقت يمر بطيئاً بطيئاً دون أن تسمع لزوجها صوتاً أو ترى له وجهاً فترتد متثاقلة نحو فراشها فتستلقي عليه، ترى ماذا فعلت الأقدار بثمامة؟ في أي أرض هو الآن وتحت أية ناشئة من نواشئ السحاب؟ أمعافى هو الآن يطوي الظلام بين رفقائه فرحاً بنجاح السرية مزهواً بما يحمل من الغنيمة غلى ظهره فلا يلبث أن يقتحم عليها الباب بعد لحظة فيرمي الوقر بين قدميها كعادته، فيخلع شارة العيارين ويغسل عن وجهه الغبار ويرتدي قميصه الحرير الفضفاض فينقلب زوجاً لطيفاً أنيساً يريح جنبه معها على الفراش ويقص عليها حديث الليلة، فما باله إذن أبطأ في العودة، وقد انقضى الليل إلا أقله وكادت نجوم السماء تغور؟ أم خانه الليلة حظه ففتك به فاتك ممن تسوروا داره أو نقبوا حائطها أو هاجموا قافلته فهو الآن قتيل بين الجدران، أو صريع في العراء ترقبه النجوم الباقية، وتحوم حوله الذئاب العاوية وقد تفرق عنه رفاقه بدداً وانتشروا في كل مهرب يبغون النجاة؟ أم تراه أحيط به فوقع أسيراً في أيدي الشرطة والعسس فهو الآن مكبل بالأصفاد قد ألقي به في قعر سجن ضيق؟

فإذا وصل بها التخيل إلى هذا الحد اقشعرّ بدنها وانتفضت انتفاضة المروع فإذا هي ما تزال عذراء في منزل أخيها ليس بينها وبين ثمامة من صلة أو سبب، فتتنفس الصعداء أن كل ما تصورته الساعة حقيقة باطلاً كله من صنع الوهم والخيال.

٣

رجع عيدان ذات ليلة إلى بيته بعد أن صلى العشاء في جامع القرية، فأسرج بغلتـــه وألجمهـــا ثـــم ركبها وسار بها في أزقة القرية حتى خرج من بابها الجنوبي المتهدم فوكزها بعصاه وانطلق بها فـــي الخلاء الواسع وهو رخي البال منشرح الصدر يشعر بخفة عجيبة حتى ليخيل إليه أن البغلة قد ركبـــت لها أجنحة تطير به في الفضاء لتصل به إلى منزل الحبيبة بأسرع الأسباب، إنه سيســـمر الليلـــة عنـــد حمدان وسيستمتع برؤية عالية وسماع حديثها في منزل أهلها ثم لا يراها في المرة التالية إلا عروســـاً تجلى عليه في بيته.

وكان الهواء منعشاً يتندى بالنسيم العليل الذي يتهادى في ذلك الفضـــاء ليمســـح بأذيالـــه الناعمـــة الخضلة تلك الرمال المكدودة التي ظلت تتلوى من حر النهار الطويل، وليروح بأنفاسه اللطيفـــة عمـــا يكتنفها من القريات والدساكر حيث يوزع بلسمه الشافي على فلاحيها المجهدين، ومواشيها اللاغبة حتى ينعم الجميع بلذة النوم الهنيء الذي جعله الله مشاعاً بين الخلائق، لا سبيل للغني أن يحجبه دون الفقيـــر ولا للقوي أن يغتصبه من الضعيف.

وكان بدر التمام مطلاً من علياء سمائه بكل روائه وكامل ضيائه على ذلك الكون المسحور حيـــث استحال كل حقيقة إلى خيال، وكل خيال إلى حقيقة، فالرمل الأبيض الناعم قد أمسى ذروراً من الفضـــة تغوص حوافر البغلة فيه، وظلال الأشجار على جانبي الطريق كأنها شخوص من الجن أدركها النعاس وهي تهيم في تلك البطاح فتمددت حيثما حلا لها من الأرض، وقد ارتفع كل حجاب وشف كـــل شـــيء حتى أوشك عبدان أن يرى خواطره تتمثل أمامه في صور شتى قوامها من ضوء القمر.

ويمر عبدان بين الفينة والفينة بفارس يركض به جواده، أو فلاح يخفق على حماره، أو رفقة مـــن الناس يمشون الهوينى مستعينين بالحديث على قطع الطريق، فما هو إلا أن يحيي أحد أولئـــك أو يـــرد تحيته حتى يلتفت وراءه فلا يكاد يرى أحداً كأنما سدل من الضياء سجف أبيض كبير ستر أولئك الناس عنه.

وعاد عبدان فتخيل السمر الذي سينعم به وشيكاً على الدكة الخارجية مـــن كـــوخ حمـــدان حيـــث يتجاذب معه ومع والدته العجوز وأختيه وزوجته أطراف الحديث، وجعل يزور في نفسه ما هو قائـــل لعالية أول ما تستقبله عند باب الكوخ وحين يستقر به مجلسه إلى جانبه، ولكـــن الحـــديث ذو شـــجون فأولى به أن يترك نفسه على سجيتها ليملي الموقف عليه ما ينبغي له أن يقول.

وتذكر عند ذلك موقف راجية ومسلكها الغريب نحوه في الأيام الأخيرة، فـــانقبض صـــدره قلـــيلاً، وسرح يستعرض صورها وهي تلاطفه أو تعانقه أو تتغنج له أو توري له في القول، على غير مألوف عادتها معه في كل ذلك، وجعل يتلمس لذلك تفسيراً يريح به صدره وينفي به سوء الظن عنها، فأعيـــاه بعد الجهد أن يجد من ذلك ما يريد، ترى ماذا يدفعها إلى هذا السبيل! أهيام به قد بلغ من الشدة أن خلع

عنها ربقة الحياء؟ أم كيد لأختها أملاه الحسد والبغضاء حتى جشمها كل هذا العناء؟ ليس أمامه إلا أحد هذين التفسيرين، ولكنه لا يستطيع أن يجزم أي هذين هو التفسير الحق.

ثم أخذ يسائل نفسه كيف ينبغي له أن يعاملها؟ لقد كان يكتفي في ذلك بالتجاهل والإغضاء، أفيبقى على إغضائه وتجاهله؟ إلى متى هذا الحال؟ إن الفتاة لتزداد في جرأتها يوماً بعد يوم، ألا يزجرها عن ذلك؟ أولا ينبه أمها إليه؟ ولكن هل تستطيع أمها أن تصلح من حالها شيئاً؟ إن راجية لجارية شموس لا تبالي ما تأتي وما تدع وإنها لسليطة اللسان فماذا يكون أمره أو سلقته بكلمة نابية أو افترت عليه فرمته بدائها وانسلت؟ أفلا يخشى أن يفسد ذلك ما بينه وبين عالية أو يكدر الصفو بينهما على الأقل؟

وإن عجبه من مسلك عالية لا يقل عن عجبه من مسلك راجية؟ كيف ترى عالية كل هذا فلا يثور لها عرق من عروق الغيرة؟ وبعض هذا كان حرياً أن يزلزل قلب غيرها من النساء لو كانت مكانها؟ ماذا يضطرها إلى هذا السكوت؟ أحبها الشديد لأختها؟ أم حرصها على سمعة أهلها أن تلوكها الألسن؟ أم ثقتها التامة بمكانها عنده أن تحيك فيه مثل هذه الهنات؟ أم أنها لا تبالي كثيراً أن يكون لها أو لأختها ليقينها أنه لو تخلى عنها لتهافت عليها كثير من الخطاب كلهم يفوقه جمالاً، ومالاً وجاهاً ونسباً؟ إنه يعلم علم اليقين أن عالية لا تكرهه، بل عنده من الدلائل القوية ما يثبت أنها تحبه وتعزه، ولكن ما يدريه أن لا يكون ذلك الحب الذي ظهر له منها راجعاً إلى حرصها على مجاراة أهلها فيما يرون وتحقيق ما يحبون؟ ألا يصح أن يتخذ دليلاً على هذا أنه قد مر على خطبته لها زهاء عامين ولا يذكر أنه سمع منها في خلالها كلمة حب قط؟.. ولكن ذلك قد يرجع إلى أنها حيي صموت فضلاً على أنها مدللة متثاقلة، وأنه ليأتي لها بالهدايا الثمينة من حلل وحلي فتقبلها منه بالشكر ويفتر ثغرها عن ابتسامة هادئة، ولكنه لا يذكر أنها اهتزت فرحاً لشيء من ذلك قط، كما تصنع الفتيات، قد يكون هذا لأنها لا تحبه حباً صادقاً، ولكن قد يكون أيضاً، لأن قلبها الكبير لا تستخفه أمثال هذه الأشياء الزائلة، ومهما يكن من شيء فإن صنيع راجية هذا قد كدر الصفو الذي يشعر به في الحاضر، وجعله يتوقع متاعب يخشى أن تعصف بسعادته في المستقبل.

كانت هذه الخواطر تتلاعب برأس عبدان، إذ لاحت له أبراج الحمام التابعة لكوخ حمدان فطامن من سير البغلة وأخذ يصلح من قميصه وجبته وعمامته، وطرد ما بقي من الوساوس في قلبه ليلقي القوم بشوش الوجه باسم الثغر، وخفق قلبه خفوقاً شديداً حين ترجل من دابته دون الزرع النابت حول الكوخ، وأخذ يقودها في الممشى الموصل إليه خلال الزرع، ورمى بطرفه إلى الكوخ فرأى الدكة الخارجية وقد دثرها ضوء القمر النافذ من خلال الغصون، فراعه أنه لم يلمح حمدان ولا أحداً من أهله ينتظره كما كان متوقعاً، وأنه لما اقترب من الكوخ سمع أصواتاً مختلفة يشوبها شجو كالبكاء فانقبض صدره واستعاذ بالله من سوء ما يضمر الليل، ووقف فنادى: حمدان حمدان! فأجابه صوت داخل الكوخ تبين أنه صوت الأم العجوز: من أنت؟ من المنادي؟

- أنا عبدان.

- مرحباً بك يا عبدان.. افتحي له يا راجية.

وتبين عبدان في صوتها نشيج البكاء، فزاد اضطرابه وقلقه وأسرع فربط دابته في المربد عن يمين الدكة.

وفتح باب الكوخ فإذا هو براجية قد وقفت وانية الحركة على غير عادتها، ونظر إلى وجهها في النور الخافت، فرآها تنشج والدموع تنهمر من عينيها، فخطر له أول ما خطر له أن صبر عالية على أختها الرعناء قد نفد، وأن غيظها المكتوم قد انفجر، فوقعت الواقعة بين الأختين، وصلى بنارها أهل البيت جميعاً.

- أين أخوك حمدان يا راجية؟

فأجابته بصوت متهدج: "ألم تعلم بما حدث يا عبدان؟".

- ماذا حدث؟

لم تجبه راجية بل انكفأت راجعة إلى داخل الكوخ، فتبعها عبدان فهاله أن رأى أم حمدان وأم الغيث جالستين تبكيان، ولم ير عالية بينهما، فهجس بباله أن الخطب أعظم مما ظن، فتهيب السؤال ووقف ينظر إليهما واجماً، ثم مد يده إلى العجوز فقبل يدها، وعندئذ مسحت العجوز دمعها وقالت له: "ويحك يا عبدان، ألم تعلم بما حدث لعالية؟".

- ماذا حدث لها؟ وأين هي الآن؟ وأين حمدان؟

- خرجت تحتطب من العصر فلم تعد، وبحثنا عنها في كل مكان فلم نجد لها أثراً.

- هل كانت وحدها في المحتطب؟ هل خرجت وحدها تحتطب؟

- بل كانت معها أختها راجية، ولكنها أبعدت عنها فلم ترجع إليها.

- كانت راجية معها إذن؟

- نعم..

- هذا عجيب!

قال عبدان هذه الجملة وغرق في بحر من الظنون تتدافعه أمواجه المتلاطمة، فإذا ما انتهت به إلى الشط أو ما يشبه الشط وجد راجية واقفة تبكي هناك، وقال في نفسه إنها تتصنع البكاء لتصرف به العيون عن سر رهيب تعلمه هي وحدها ولا تريد أن تبوح به.

وطفق عبدان يسترق النظر في وجه راجية بارتياب لم يستطع إخفاءه حتى صاحت في وجهه محتدة: "ما بالك تنظر هكذا إلي؟ أتتهمني بأن لي ضلعاً في اختفاء خطيبتك؟".

فنهرتها أمها قائلة: "ويلك يا راجية ماذا تقولين لعبدان؟".

قالت راجية: "أما رأيته يا أماه كيف ينظر إلي؟".

فقال عبدان معتذراً: "معاذ الله يا ابنة عمي أن أتهمك بالكيد لأختك وإنما تعجبت من اختفائها وكنت معها!".

- لقد قالت لك أمي إنها أبعدت عني فلما التمستها لم أجد لها أثراً.

- أما رأيت أحداً مر بكما إذ كنتما تحتطبان؟

فسكتت راجية قليلاً ثم قالت: "بلى، رأيت كوكبة من الفرسان مروا بنا منطلقين في عرض الطريق".

فقال لها عبدان: "أكان اختفاؤها عقب مرور أولئك الفرسان؟".

فأشارت راجية برأسها أن نعم.

- أما رأيت فيهم من أحد تعرفينه؟

- أنى لي أن أعرفهم وهم كانوا ملثمين؟

- على هيئة الشطار؟

- كان بعضهم كذلك.

- أما ارتبت بأحدهم أن يكون ثمامة؟

فسكتت راجية هنيهة وبدا عليها شيء من الارتباك، ثم تطلق وجهها قليلاً وهي تقول: "يخيل إلي أن ثمامة كان بينهم ولكني لا أستطيع الجزم بذلك".

فنظرت إليها أم الغيث متعجبة: "لولا ذكرت هذا لأخيك حمدان ليسهل عليه البحث!" فظهر الغضب في وجه راجية وقالت: "ما سألني حمدان هذا السؤال، وبعد فعرضي بي يا أم الغيث ما شاءت لك الضغينة، ولكن لا تنسي أن عالية أختي فلا غرو أن أنساني قلقي عليها كل شيء".

قالت أم الغيث: "حتى ما يعين أخاك في البحث عنها؟".

فصاحت راجية قائلة: "نعم حتى ذاك ما شأنك أنت؟ حسبك أن تنامي في الظل ونحن نعمل في حر الشمس من أجلك!؟.

فقالت لها أمها: "كلا يا راجية، إن أم الغيث لم تقل شيئاً يسيء إليك ولم تقصد إلا الخير".

وأيدها عبدان قائلاً: "أجل لا ينبغي لك أن تغضبي من كل سؤال يوجه إليك".

فقالت راجية: "وأنت أيضاً يا عبدان!" ثم طفقت تنشج بالبكاء وهي قول: "أواه عليك يا أختي يا عالية! ليت الذين اختطفوك اختطفوني مكانك" وما أتمت كلمتها حتى دفنت وجهها في حجر أمها وهي تنتحب.

وانتبه عبدان لهول الحقيقة التي نطقت بها راجية في هذه الجملة الصريحة، وذهب عنه التماسك الذي تصنعه لذلك الحين وهو يستنطقها ليعرف منها جلية الأمر، فدنا منها وأخذ بكتفيها يهزهما هزاً قوياً وهو يقول بصوت متهدج: "إذن فقد أيقنت أنهم اختطفوها؟".

- نعم اختطفوها.. لا ريب عندي أنهم اختطفوها.

- من هم؟

- لا أدري من هم.. دعني.. لا تهزني هكذا..

- قلت إنك رأيت ثمامة بينهم؟

- نعم رأيته بينهم.. هو الذي اختطفها.. لابد أنه هو.. لعنة الله عليه، ليته اختطفني مكانها، إذن لكان ذلك أهون على نفوسكم!